

البلاغ الأخير في ولاية الأمير عليه السلام

الكاتبة: فاطمة صباح^١

المشرف: حسين خانجوس^٢

قبول: ١٤٣٧/٤/١٢

استلام: ١٤٣٦/٦/٣

الملخص

إن خطبة الوداع وحادثة الغدير وتنصيب الإمام علي عليه السلام ولياً للمسلمين من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإماماً لهم وأميراً للمؤمنين، لم تأت من فراغ؛ إنما كانت حكمة إلهية أظهرها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الواقعة ودعمها الله سبحانه وتعالى بالآية الأخيرة التي تقول: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا»،^٣ فولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام العباد هي نفس ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الممتدة من ولاية الله عز وجل عليهم، وهي النظام الأصح للأمة فيها كمال الدين ورضى رب العالمين؛ لذا كان الانحراف والتخلف عن خط الولاية سبباً في تقطع أوصال الأمة وتشتت أمرها وظهور الحركات التكفيرية وجعلها هدفاً سهلاً للمشركين والذين كفروا. ومن أراد أن يسلك الطريق الأقصر والأوضح للوصول إلى نور المعرفة ونور الحياة والسعادة عليه أن يتمسك بخط الولاية.

الكلمات الرئيسية: الغدير، الإبلاغ، الولاية، الإمامة

المقدمة

حادثة الغدير من الحوادث التاريخية المعروفة، اكتست أهميتها من وقوعها في خط المشروع الإلهي، وتعتبر فاروقاً بين الحق والباطل، بين من أطاع الله وقال لبيك اللهم لبيك وبين من عصى الله وانقلب على عقبيه. بدأت هذه الحادثة عندما نزل الوحي قائلاً: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ»^٤ فما الذي أنزل ولم يبلغه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى تلك الساعة؟ وما هو كنهه ليساوي رب العالمين بينه وبين تبليغ كامل الرسالة؟ مع العلم أن الرسالة المعنية هي الرسالة الخاتمة التي نسخت ما جاء قبلها من رسائل سماوية.

ولماذا كان في التبليغ الأمور به كمال الدين وتمام النعمة ورضا رب العالمين بالإسلام ديناً؟ أسئلة عديدة كل منها يحتاج في بيانه إلى بحوث خاصة مستقلة ومطولة. فالحقيقة بعيدة المدى في عمق الزمان، في عالم الإمكان، فولاية الرسول والذين آمنوا من سنخ ولاية الله جلّ جلاله. وليست هي وظيفة أحدثت من أجل علي عليه السلام ولا مهمة أختُرت له، في هذا البحث سوف أستعرض فقط البلاغات التي أطلقها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حادثة الغدير.

١- طالبة في مرحلة الإجازة فرع الشريعة الإسلامية، fatima-sabbah@hotmail.com

٢- أستاذ في جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم المفتوحة، khanjous@gmail.com

٣- المائدة: ٣.

٤- المائدة: ٦٧.

مضمون الحادثة

يناديهم يوم الغدير نبينهم
وقال: فمن مولاكم ونبينكم؟
إلهك مولانا وأنت ولينا
بخم وأسمع بالرسول مناديا
فقالوا ولم يبدوا هناك التعاديا
ولن تجدن مالا لك اليوم عاصيا

حديث الغدير من الأحاديث المتواترة من عصر الرسول الأكرم ﷺ إلى يومنا هذا. تسالم عليه الفريقان إلا بعض الشذاذ الذين تنكبوا عن الطريقة.^٢ ومضمون ما جاء في الحديث أن الحدث حدث يوم الخميس الواقع فيه الثامن عشر من ذي الحجة أثناء عودة رسول الله ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة مع جموع من المسلمين - قيل ثمانين ألف على أقل تقدير- وحينما وصلوا إلى غدير خم في الجحفة، نزل الأمر الإلهي:

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ»^٣

فتوقف رسول الله ﷺ وأمر بأن يُرد من كان تقدم من القوم وأن يُحبس من تأخر عنهم، وبعد تجمعهم نودي بالصلاة، ولما قضيت، قام خطيباً، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، أخبر القوم بقرب ارتحاله وانتقاله إلى الحياة الأخرى، وأشهدهم على أنه قد بلغ أحكام ربه، ثم قال:

إني فرط - متقدمكم - على الحوض فانظروني كيف تخلفوني في الثقلين.

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر كتاب الله والأصغر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن ينفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثم أخذ بيد عليّ ﷺ فرفعها - حتى بان بياض إبطينها وعرفه القوم أجمعون - وقال أيها الناس! من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه.

قالها ثلاث مرات.

ثم قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه... وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ولم ينفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا»^٤.

١- ابن شهر آشوب، ١٣٧٩، ج ٣، ص ٢٧؛ البحراني، ١٣٧٤، ج ٢، ص ٢٤٤؛ المفيد، ١٤١٣، ج ١، ص ١٧٧ (الشعر لحسان بن ثابت).

٢- لمن أراد معرفتهم فقد ذكر العلامة الأميني أسماء المؤلفين وخصوصيات كتبهم في الجزء الأول من كتاب الغدير، من الصفحة ١٥٢ إلى الصفحة ١٥٧.

٣- المائدة: ٦٧.

٤- المائدة: ٣.

فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتي، والولاية لعلي من بعدي ثم أخذ الناس يهنؤن علياً ومن هنا في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر، كل يقول: يخ يخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.^١

من هذه الحادثة نستنتج عدة بلاغات أطلقها رسول الله. بلاغات لم يختلف فيها يومها اثنان منها:

١- تنويح علي ﷺ بالولاية رسمياً

«إن أمرنا صعبٌ مستصعبٌ لا يحمله إلا عبدٌ مؤمنٌ امتحنَ الله قلبه للإيمان ولا يعي حديثنا إلا صدورٌ أمينَةٌ وأحلامٌ رزينةٌ».^٢ كان النبي ﷺ يوجه أنظار المسلمين إلى العظمة في شخصية علي ﷺ وإلى أنه الوحيد الذي يستطيع أن يتم شروط الرسالة بعده، فكان يقول علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي، ولم ينتظر حادثة الغدير ليعلن عن خليفته ووصيه، وهو الحريص على الإسلام والمسلمين، وقد تحمل في سبيل نشر الرسالة والحفاظ عليها ما لم يتحملة غيره من الأنبياء حتى أنه صلوات الله عليه قال: «ما أودى نبي مثل ما أوديت».^٣

لذا نجده من أجل حفظ هذه الرسالة من كيد الكائدين، يعمل على تسليط الضوء على الخلافة وتحضير الأذهان لفكرة الولاية منذ أولى خطواته في الدعوة العلنية، فقد شاءت الحكمة الإلهية التدرج في الإعلان فقالت: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ».^٤

وتجلت وحدة النبوة والإمامة في وحدة الهدف وتم الاستخلاف الأول لعلي ﷺ بإعلان خط الولاية في حادثة الدار، واستكملت الخطوات يوم الغدير بالتأكيد على خط الولاية، وكان المولى سبحانه أراد للرسالة أن تبدأ بولاية علي وأن تختتم بها، وأن تسير بين الإعلان والإختام على لحن الولاية، لذا لم يترك رسول الله ﷺ مناسبة إلا وأنعش الأسماع بمعزوفة فضائل علي ﷺ وولاية علي ﷺ وتجسد الاستخلاف الأول ليلة المبيت وقام مقامه في رد الودائع إلى أهلها.

وفي حديث المسيب عن علي بن الحسين ﷺ قال:

«وخلف علياً ﷺ في أمور لم يكن يقوم بها أحد غيره».^٥

وأصبحت تضحيات علي ﷺ في سبيل حفظ الرسول ﷺ والرسالة لا لأجل مثوبة ابتغاه، بل لأنه فهم التوحيد بأروع معانيه، فعاشه بصدق وإخلاص، فكان أخا رسول الله ﷺ ونفسه، والحامي والمدافع، وكان نور الله، ويد الله، وباب الله، وعين الله في خلقه، وكان مع الحق، ومع القرآن بل عدل القرآن كما في حديث الثقلين وغيرها من الأحاديث التي كانت تكشف بعضاً من شخصية علي ﷺ يطلقها رسول الله ﷺ أوسمة ناصعة على صفحات التاريخ يتناقلها من حضر من المؤمنين، أما تنصيب علي ولياً يوم الغدير فقد كان تنصياً إلهياً رسمياً حضره آلاف المسلمين ليكون حجة عليهم يوم الدين. وليقى الحدث حياً بامتداد العصور.

١- الأميني، ١٤٢٢، ج ٢، صص. ٣٤-٤٢؛ المجلسي، ١٤٠٣، ج ٧، ص. ١٤٢.

٢- الكليني، ١٤٢٩، ج ٢، ص. ٣٣٣.

٣- المجلسي، ١٤٠٣، ج ٣٩، ص. ٥٦.

٤- الشعراء: ٢١٤.

٥- المجلسي، ١٤٠٣، ج ١٩، ص. ١١٥؛ المعلم، ١٤٢٧، ص. ١٥٩.

فقد شاء الله تعالى لهذه الحادثة أن تحيا وتكبر عبر السنين لتطال الأجيال جميعها، فيحيى من حي على بينة من أمره، ويهلك من هلك كذلك عن بينة من أمره، والدليل على هذه الإرادة والمشينة قول الرسول ﷺ في ذيل خطبته: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

وهو بلاغ مطلق فكل من شهد الحادثة أو سمع بها من ثقة أصبح مكلفاً بتليغها؛ وبهذا البلاغ خرج دين الله من مرحلة الحدوث إلى مرحلة الثبوت والبقاء، ويثس الذين كفروا من القضاء على دين محمد وإطفاء نور الله، فهؤلاء كانوا يعيشون أحلام اليقظة التي تعطيهم الأمل والرجاء بزوال الدين مع موت الرسول ﷺ الذي لا عقب له يخلفه في أمره أو ملكه كما يحسبونه، ومع تبليغ أمر الله بالولاية لعلي عاش هؤلاء حالة الكمد واليأس من تحقق أحلامهم، «وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»^١.

٢- الولاية تنصيب إلهي

«فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من وراك وقد استكفك أمرهم وابتلاك بهم»^٢.
لقد أثبت في علم العقيدة إن الغرض من بعثة الأنبياء ﷺ هو هداية الناس، وفي هداية الناس أمران: معرفة الله تعالى وعبادته، ومعرفة المصالح والمفاسد وما يترتب عليهما، وهذا الغرض يتحقق ما دام النبي ﷺ حياً في أمته، والسؤال بعد النبي ﷺ من يضمن تحقق الغاية في المجتمعات الإنسانية؟
فهل من العدل أن يترك الله الأجيال التي لم تشهد الرسول ﷺ هكذا من دون راع وقائد رباني بنفس صفات الرسول ﷺ يضمن استمرار الشريعة ويضيء لهم طريق سعادتهم؟
حاشا لله أن يحيف في عدله، وهو المنزه عن الظلم والقبح عقلاً، قبل أن ينزهه شرعاً «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ» وما يصب في موضوعنا قوله تعالى:
«إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»^٣.

قال السيد الطباطبائي في تفسير الآية:
قال رسول الله ﷺ: «أنا المنذر وعلي الهادي»^٤.
وفي حديث لرسول الله ﷺ مع ابنته فاطمة ﷺ قال:
«يا فاطمة إن الله عز وجل إطلع إلى الأرض فاختار منها أباك فبعثه نبياً ثم أطلع إليها الثانية فاختار منها بعلك. ففي الإطلاعة الأولى يتولى الله (جلت حكمته) انتخاب وجعل محمد ومنذ خلقه نوراً نبياً وفي الإطلاعة الثانية ينتخب شطر نور محمد الآخر المسانخ له جوهرأ فيجعله وصياً وتالياً»^٥.

١- التوبة: ٣٢.

٢- نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

٣- الرعد: ٧.

٤- الطباطبائي، ١٤١٧، ج ١١، ص. ٣٢٩.

٥- المعلم، ١٤٢٧، صص. ١٧٩-١٧٤.

ولكي يتمّ الغرض وتتمّ الحجة لله على الناس بيّن لهم مشروع الولاية والحاكمية وعرف لهم الحجة قائلاً:
«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»^١.

نلاحظ أن المولى سبحانه قد صدر الآيّة بأداة حصر تفيد حصر الموضوع بما هو متعلق به، وتمنع من دخول الأغيار فيه؛ ونجد أنه سبحانه قد إختص الولاية بذاته المقدسة؛ فله سبحانه السلطة المطلقة على عباده وبإذن منه وبإو عاطفة تفيد التلازم. أعطى هذه الولاية الخاصة لرسوله الأعظم محمد ﷺ وعدم القيد يدل على أن الولاية المعطاة لمحمد ﷺ هي بحجم ولاية الله عز وجل؛ وبإو عاطفة أخرى خالية من القيود.

أعطى سبحانه مفاعيل هذه الولاية المطلقة على العباد للذين آمنوا، وميزهم بصفات إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم راعون في طاعة الله، وهذه الصفات بإجماع السنة والشريعة مقصورة على أمير المؤمنين علي ﷺ وبهذا تكون ولاية علي ﷺ ولاية مطلقة على العباد غير مقيدة بشرط أو قيد ممنوحة من الله تعالى، وليس لأحد غيره إعطاؤها لمن يشاء، وليس هذا الأمر للرسول ﷺ مستقلاً عن الله تعالى يعطيه لمن يشاء، بل هو لله وحده، ولهذا الرأي صدى في السنة الشريفة لما دعا الرسول الأكرم ﷺ بني عامر إلى الإسلام وكانوا قد جاؤوا في موسم الحج إلى مكة.

قال رئيسهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟
قال النبي ﷺ: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»^٢.

وأما لماذا لم يذكر علي في الآيّة الشريفة بالإسم فلأن التلميح بالصفات «يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» أبلغ وأفضل من التصريح بالإسم الصريح كما هو معروف عند أهل البلاغة.

٣- الولاية خط متمم لخط النبوة ﷺ

«واعجابه! أتكون الخلافة بالصحابة والقراية»^٣.

تعتبر النبوة والإمامة جناحي التوحيد بهما تعلو العقيدة عن الشرك والشبهات، فالنبي يهدي إلى التوحيد والإمام يحفظهم عليه ويمنعهم من الانحراف عنه، فهما النور الجلي الذي اعتنت به يد القدرة الإلهية فجعلته جزئين: جزء محمد وجزء علي، فكان لمحمد النبوة ولعلي الولاية^٤.

ونحن إذا تأملنا ما جاء في مستهل الخطبة حيث قال:

«من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قالوا: «الله ورسوله أعلم».

قال: «إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليّ مولاه».

١- المائدة: ٥٥.

٢- السبحاني، ١٤١٠، ج ٢، ص. ٥٦٨.

٣- نهج البلاغة، الحكمة ١٨٠.

٤- ابن أبي الحديد، ١٤١٥، ج ٩، ص. ١١٧ (مقتبس من حديث النور).

نلاحظ أنه قد عمل بالنهج القرآني، فبعد أن استثار عقول المسلمين بسؤاله: «من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم» فرع طبقات الولاية، فهي أولاً وبالأصالة لله تعالى: «إن الله مولاي» «إنما وليكم الله» ومن ولاية الله تتفرع ولايتي فهي لي عليكم «وأنا مولى المؤمنين» «ورسوله» بالحكم الرباني «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»^١ ومن ولايتي تتفرع ولاية الوصي بعدي «والذين آمنوا» فمن كان يؤمن بأن لي ولاية عليه فهذه الولاية هي لعلي بعدي «فمن كنت مولاه فعلي مولاه».

وبهذا تكون الولاية والوصاية على الناس معروفة محددة فلا يقول أحد لم أعرف. وبما أن الولاية فرع النبوة، أوجب الله تعالى لها طاعة العباد كما للأصل بالنص القرآني فقال:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»^٢.

فطاعة الولي كطاعة الرسول وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله جل جلاله، وطاعة الله تعالى ثابتة بحكم العقل. وفي الحديث عن ابن عباس قال:

«قال رسول الله ﷺ: إن الله افترض طاعتي وطاعة أهل بيتي على الناس وعلى الخلق»^٣.

بهذه الطاعة وبهذه الولاية صدح رسول الله ﷺ على رؤوس الأشهاد: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه».

ولاية هي بنفس حجم ولاية الرسول ﷺ نفسه، وقد زاد في إظهار مقام الولي بأن جعل مَنْ والاه ولياً لله، وَمَنْ عاداه عدواً لله. وبهذا يكون خط الولاية خط متفرع عن خط النبوة ﷺ وحافظ لها؛ له ما لها وعليه ما عليها من مهام السير بالمجتمع الإنساني في طريق الكمال. فهو عين الله السهرة على خلقه، يرعاهم برعايته، فيحفظ لهم دينهم ويمنعهم عن التقهقر والتقلب في سبل الضلال والانحراف، ولولا الولاية لكان الدين تشريعاً محدوداً بفترة زمنية محدودة نهايتها ارتحال رسول الله ﷺ عن هذه الدنيا؛ وهنا أحب أن أذكر بعض مقتطفات من مهام الوالي التي ذكرها أمير الكلام ﷺ في أمره إلى الأشر حين ولاء مصر^٤ فمن مهامه تجاه البلد:

«جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها... وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكن عليهم سبباً ضار تغتمم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق... ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء... واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى لبعضها عن بعض... وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج... وتعهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن... واجعل لذوي الحاجات منك قسماً... فلا تكون منفراً ولا مضيعاً ولا تطولن احتجابك عن رعبتك... ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك والله فيه رضى... إياك والدماء وسفكها بغير جِلِّها... وإياك والإعجاب بنفسك... وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة»^٤.

فمن كان هذا مفهومه للولاية ولراعي الأمة، ومن كان اكتسب هذا المفهوم من ولي الله ألا يستحق أن يوليه نبي الله ﷺ

إمارة المؤمنين؟

١- الأحزاب: ٣٦.

٢- النساء: ٥٩.

٣- المعلم، ١٤٢٧، ص. ١٧٦.

٤- نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

٤- نظام الملة وكمال الدين

«أشقى الرعاة من شقيت به رعيتته»^١.

ختم رسول الله ﷺ خطبته بوصية ذات أهمية عالية؛ العمل بها يضمن نجاح الأمة وفلاحها؛ فهي بمثابة المنطلق والأساس لعهد جديد- عهد الولاية والوصاية- عندما شرح لأحد المؤمنين معنى الثقلان ومدى تلازمهما، قال:
«الْأَكْبَرُ كِتَابُ اللَّهِ سَبَبُ طَرَفُهُ يَدُ اللَّهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ لَنْ تَزُولُوا وَكَأ تَضَلُّوا وَالْأَصْغَرُ عِزَّتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرَقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ وَسَأَلْتُ لَهُمَا ذَلِكَ رَبِّي فَلَا تَقْدَمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا وَكَأ تَعْلَمُوهُمَا فَإِنَّهُمَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ»^٢.

بهذا الحديث قرن رسول الله ﷺ بين القرآن وأهل البيت عليهم السلام وأنزلهم منزلته وقد جاء في الحديث ما يفيد نفس المعنى تقريباً، ففي الكافي عن يزيد بن معاوية قال:

قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»^٣.

قال: «إيانا عَنِّي، وعليُّ أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله»^٤.

فالذي عنده علم الكتاب الذي فيه بيان لكل شيء حتماً سيكون نظاماً للملة، وكمالاً للدين، فسوف يأمر بما جاء في الكتاب الكريم، ولن يحتاج إلى من يبين له أمراً من أمور الدين، أو يوضح له مسألة يجهلها، أو يفتي له بشيء تحتاجه الأمة، فمن عنده علم الكتاب لن يخرج الناس من هدى ولن يدخلهم في بدعة وضلالة، فالذي عنده علم الكتاب ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير، إنه النبا العظيم الذي هم فيه يتساءلون، إنه تلك الشخصية الفذة التي تغذت من عصارة الوحي الإلهي، فنبتت منبتاً إلهياً، يحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله ويحبه الله ورسوله صلى الله عليه وآله لا يخاف في الله لومة لائم ولو أن الأمة ثبتوا على ولايته واستقاموا على الإسلام لكان فيه خيرهم وصلاحهم «وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَيَّ الطَّرِيقَةَ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا»^٥.

النتيجة التي نخلص بها من واقعة الغدير أن الولاية هي نظام للأمة بها يكمل الدين وبدونها يُمحق ويذهب المشروع الإلهي بأكمله وتعب النبيين والمرسلين أدراج الرياح؛ وهذا ما أكدته آية البلاغ المتقدمة الذكر، وما ألفت إليه المولى سبحانه عندما أمر عباده بأن يستمسكوا بالعروة الوثقى وبحبل الله المتين لئلا يفشلوا وتذهب ريحهم، فقال:

- «واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرقوا»^٦؛

- «وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ»^٧.

١- ابن أبي الحديد، ١٤١٥: ج ١٢، ص. ٩٢.

٢- الحر العاملي، ١٤٢٥: ج ٢، ص. ٣٢٠؛ المجلسي، ١٤٠٣، ج ٢٣، ص. ١٥٢.

٣- الرعد: ٤٣.

٤- الكليني، ١٤١٨: ج ١، ص. ٢٥٦.

٥- الجن: ١٦.

٦- آل عمران: ١٠٣.

٧- لقمان: ٢٢.

وهذا ما أظهرته فاطمة عليها السلام في خطبتها حيث قالت: «جعل الله ... وَطَاعَتَنَا نِظَامًا لِلْمِلَّةِ وَإِمَامَتَنَا أَمَانًا مِنَ الْفُرْقَةِ...»^١. من كلامها يظهر أن الولاية هي النظام الأصلح للأمة، تمنع تفرق أبنائها إلى أحزاب وشيع، كما حدث عندما لم تأخذ الناس بعين الاعتبار التحذير الإلهي لهم من مغبة الانحراف عن الولي والولاية بالقول: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»^٢.

فالولاية ثابتة باقية يجزي الله المتمسكين بها الشاكرين لله أن أنعم عليهم بنعمة الولاية والله يحب الشاكرين، وهذا يعني أن التارك للولاية المنحرف عنها لا يطاله الجزاء الإلهي بل يكون من الأخسرين أعمالاً.

الخاتمة

إن النظرة إلى قضية الولاية بصورة كاملة غير متجزأة تنسجم انسجاماً تاماً مع المنظومة الإسلامية؛ لا بل هي السور العظيم الذي يصون الإسلام من الوهن والضعف والعي، وتحفظ المسلمين في مسلك الصراط المستقيم؛ فليس الأمر هو ولاية علي عليه السلام أو غيره؛ وعلي عليه السلام نفسه يخبر بأن لاقية للإمرة عنده إلا أن يقيم حقاً أو يزهق باطلاً؛ فهي وعظمة العنز سواء عنده، بل المسألة مسألة امتثال لأمر الله تعالى في خلافة الإنسان الكامل القادر على إقامة العدل وقيادة الناس في طريق الكمال المادي والمعنوي؛ إنسان هو من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالضوء من الضوء والذراع من العضد.

هذا والعقل السليم يحكم أنه إذا قضى المولى أمراً فلا راد لحكمه، ولا خيرة للإنسان فيما خار له ربه ومولاه. قال الله تعالى: «... قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا»^٣، هؤلاء تمسكوا بالثقل الأكبر فسالت عنهم أبحر العلم، وساروا على نهج الثقل الأصغر. عملوا على حفظ الدين ونشره وتقوية شوكة المسلمين. فكانوا الفكر الذي يقوم الانحراف والاعوجاج والعي التي تقاوم المنخرز واليد التي تهزم الجبروت وتجعله تحت أقدام المؤمنين الأحرار. ومن أراد أن يسلك الطريق الأقصر والأوضح للوصول إلى نور المعرفة نور الحياة والسعادة عليه أن يتمسك بخط الولاية.

١- ابن بابويه، ١٤١٣: ج ٣، ص. ٥٦٨.

٢- آل عمران: ١٤٤.

٣- الكهف: ١٤.

المصادر

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- نهج البلاغة.
- ٣- الأميني النجفي، عبدالحسين، (١٤٢٢)، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، قم: مركز الغدير للدراسات الإسلامية.
- ٤- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، (١٤١٥)، شرح نهج البلاغة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ٥- ابن بابويه (الصدوق)، محمد بن علي، (١٤١٣)، من لا يحضره الفقيه، قم: مؤسسة النشر الإسلامي.
- ٦- ابن شهر آشوب، محمد بن علي، (١٣٧٩)، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، قم: مؤسسة علامة.
- ٧- البحراني، السيد هاشم، (١٣٧٤ش)، البرهان في تفسير القرآن، قم: مؤسسة البعثة.
- ٨- الحر العاملي، محمد بن حسن، (١٤٢٥)، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ٩- السبحاني، جعفر، (١٤١٠)، الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، بقلم حسن محمد مكي العاملي، بيروت: الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.
- ١٠- الطباطبائي، السيد محمد حسين، (١٤١٧)، الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ١١- الكليني، محمد بن يعقوب، (١٤١٨)، الكافي، قم: دار الأسوة للطباعة والنشر.
- ١٢- المجلسي، محمد باقر، (١٤٠٣)، بحار الأنوار، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ١٣- المعلم، محسن علي، (١٤٢٧)، علي عليه السلام إمام الدين والدولة، بيروت: دار الهادي.
- ١٤- المفيد، محمد بن محمد، (١٤١٣)، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد عليهم السلام، قم: مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

پروشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی